دكتور جورج حبيب بباوي

موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية
www.coptology.org

شركتنا في بنوة الابن للآب

حسب شرح القديس أثناسيوس الرسولي

شـــركتنا

في بنوة الابن للآب

حسب شرح القديس أثناسيوس الرسولي

دكتور جورج حبيب بباوي

٢٠٢٣

اسم الكتاب : شركتنا في بنوة الابن للآب
حسب شرح القديس أثناسيوس الرسولي

المؤلف : د. جورج حبيب بباوي

الناشر : جذور للترجمة والنشر والتوزيع
١٤ ش محمود حافظ ـ ميدان سفير ـ مصر الجديدة.
ت: ٢٧٧٩٦١٣٧

الطبعـة : الأولى ـ يناير ٢٠٢٣

رقم الإيداع :

الترقيم الدولي :

جدول المحتويات

الفصل الأول

مجد وحرية أبناء الله ٥

الفصل الثاني

الصورة والمثال ٩

الفصل الثالث

دعائم الأرثوذكسية لفهم الخلاص ١٤

أولاً: التعليم الخاص بالله؛ عقيدة الثالوث ١٤

ثانيًا: شركة الآب والابن والروح القدس في الجوهر الواحد ٢٠

ثالثًا: تجسُّد الرب من العذراء: ٢٥

الفصل الرابع

التفسير الخاص والتفسير الكنسي ٢٩

أولاً: التفسير الخاص يُنكر الممارسة الكنسية نفسها: ٣١

ثانيًا: التفسير الخاص يتجاهل المجال العام الذي تقدمه الأسفار: ٣٦

ثالثًا: التفسير الخاص ينكر الإيمان الذي يجب أن يسبق تفسير الأسفار ٣٧

الفصل الأول

مجد وحرية أبناء الله

نحن بالطبيعة عبيدٌ لله. هذه حقيقة لا تقبل الجدل، فقد جئنا من العدم وخُلِقنا من لا شيء. وبالطبيعة أو حسب الطبيعة نحن لا نملك أي شَبَه أو علاقة أو حتى معرفة بالله نفسه. جئنا من العدم، والعدم هو الأب أو الأم أو الرحم الذي خرجنا منه جميعًا، والذي كان يمكن أن نعود إليه لولا النعمة الإلهية الفائقة التي مَنَحَت لنا أن نكون على صورة الله وشبهه (تك ١: ٢٦-٢٧ – ١كو ١١: ٧). حسب النعمة نحن فوق العدم، وفوق العدم لأننا خُلِقنا على صورة الله الكائن، وصار لنا كينونةٌ أو وجودٌ مثل الله، وإن كان هناك فارق جوهري بين الأصل والصورة يظهر -حسب تعليم الكتاب المقدس والقديس أثناسيوس- في النقاط التالية:

أولًا: الله كائنٌ بذاته، أو حسب التعبير الصحيح في لغتنا العربية؛ الله واجب الوجود. أمَّا الإنسان فليس له وجود بدون الله، هو كائنٌ بقدرة الله. خُلِقَ بقوة الكلمة اللوغوس ابن الله، وبالتالي يستمد وجوده من الله، وهو كائن لأن علة كيانه أو سبب وجوده هو الله نفسه. هذا يحتاج إلى إيضاح لأننا قد ننسى أن الكائن الواجب الوجود وعلة كل الأشياء لا يستمد كيانه أو حياته من آخر. بينما الكائن بقوة وقدرة الله الخالق يستمد كيانه وحياته من الله حسب التعليم الرسولي "لأن منه وبه وله كل الأشياء" (١كو ٨: ٦)، "لأننا به نوجد ونحيا ونتحرك" (أع ١٧: ٢٨). وهكذا يحدد الكتاب المقدس معنى كلمة "صورة"، فهي تُستَمد من الأصل ولا يمكن فهمها إلَّا بالأصل وبالعودة إلى الأصل. وغياب الأصل عن

الصورة يعني أننا نفقد غاية ومعنى وجودنا البشري.

هل هذا فرقٌ كبير؟ نعم، كبير جدًا بين "واجب الوجود"، "والكائن بنعمة الله". هذا الفرق لا نستطيع أن ندركه إلَّا إذا وقفنا عند حافة العدم ورأينا أن وجودنا البشري هو وجودٌ مستحيلٌ بدون الله. وهكذا، ليس وجودنُا هو فقط وجودَ مَن يعتمد على الله في كل شيء، بل هو وجودٌ حدَّد الخالق له بدايةً ونهايةً ونموًا لا يملك الإنسان أن يعصاه أو يخرج عليه لأن هذا يقود الإنسان في النهاية إلى الهلاك.

ثانيًا: والفرق بين الإنسان و "ضابط الكل"، و "القادر على كل شيء"، و "المالئ الكل"، و "الكائن في كل مكان"، ليس فرقًا سلبيًا كما يصوِّره البعض، أي بين المحدود وغير المحدود، فهذا في الواقع فرقٌ عقليٌّ بحت تجده في كتب ومدارس الفلسفة الدينية بكل اتجاهاتها. وأحيانًا تهدف هذه المدارس الفلسفية إلى "تصغير" الإنسان إلى درجة تحط من قدره، أو إلى "تكبير" الإنسان بدرجة تجعله مجرد صورة سلبية لله. لكن ألفاظ وكلمات الكتاب المقدس وتعليم الآباء ترفض هذا الاتجاه الفلسفي لأن الفرق الدقيق بين الله والإنسان هو فرقٌ بين الأصل والصورة، أي أنه ليس فرقٌ بين الكم والنوع كما تشرحه الفلسفات، وإنما هو فرقٌ بين الخالق والمخلوق. الله خالق، ولذلك هو ضابط الكل، وقادر على كل شيء، ومالئ الكل، وكائن في كل مكان حسب صلاة مزمور ١٣٩. وعلى القارئ أن يلاحظ أن صلاة المزمور لا تبحث في الفرق بين المحدود وغير المحدود، وإنما ترى الله كائنٌ حتى في الجحيم، لا يمكن أن يتحاشاه الإنسان حتى لو أراد (مزمور ١٣٩: ٨). وضابط الكل يسمح بحرية للمخلوق، ولكن الحرية لها حد، وهو العدم أو فساد الموت أو تحلل كيان الإنسان روحيًا وماديًا. إننا هنا لسنا أمام قوة غير محدودة في مواجهة الكائن المحدود،

وإنما أمام "القوة" التي تحيي وتضبط كل الأشياء. ولسنا أمام قدرة غير محدودة في مواجهة قدرة محدودة، بل أمام "القدرة" التي تحدد مسار وغاية كل الكائنات مهما كانت.

نحن نتبع الآباء القديسين حتى لا نقع في غموض وتردد أمام حقيقة الحياة المسيحية المشيَّدة على العقيدة الأرثوذكسية. ونتبع الآباء إيمانًا بتواتر التسليم الرسولي وإيمانًا بأن الحياة المسيحية لا يمكن أن تنقسم إلى تفسيرٍ لنص الكتاب المقدس، وشرحٍ للعقيدة مبنيٍّ على الفلسفة، أيّ فلسفةٍ، أو قواعد المنطق والعقل البشري. ونحن نتبع الآباء لكي لا تنقسم ينابيع الحياة الفكرية عندنا إلى كتاب مقدس وتقليد وعقيدة وليتورجية وقانون كنسي، لأن هذا التقسيم هو دمار لوحدة الحياة الأرثوذكسية نفسها.

ثالثًا: ولذلك لا يجب أن ندخل في مقارنة فلسفية تخضع لقواعد المنطق والعقل، بل لا يجب أن ندخل في مقارنة بالمرة بين الخالق والمخلوق لأن هذا يعني في حقيقة الأمر أننا فقدنا الاتضاع الحقيقي وتجرَّدنا من الإحساس والإدراك بأننا خُلِقنا وأتينا من العدم، وأن كياننا إنما هو خاضعٌ لإرادة الله وسلطانه. هو كيانٌ له مسارٌ محدَّدٌ وَضَعَه الخالق، لو شئنا أن نخرج عليه، لجلبنا على أنفسنا الدمار. ولاحِظ أنه لو شاء مخلوقٌ أن يرفض نعمة الله وينتحر بقتل نفسه، لَتَعذَّر عليه العودة إلى الحياة مرةً أخرى، لأن فقدان النعمة لا يردَّه إلا الله وحده. ومَن يرفض الحياة لا يمكنه أن يعود إليها لأن إرادته ليست قادرة على استرداد نعمة وهبة الله، أي الحياة. بل تأمَّل أيها القارئ أننا لو شئنا أن نعطي حياتنا لآخر، ولو عن طريق التبرُّع بعضوٍ، فإننا لا نملك أن نسترد ذلك العضو. وعطية الحياة لآخر تعني أننا نقترب من دائرة الموت ونموت

إذا أعطينا حياتنا لآخر. وهكذا يظهر لنا أننا إزاء أساس الوجود وينبوع كل كينونة، وهو ما يقوله الرسول بولس: "الذي منه تُسمى كل أبوة في السماء وعلى الأرض" (أف ٣: ١٥).

الفصل الثاني

الصورة والمثال

نحن نتبع الآباء القديسين، ولا يجب - إذا شئنا أن نقدِّم التعليم الأرثوذكسي السليم - أن نجازف ونقدِّم الآراء الشخصية، حتى وإن كانت صحيحةً لأننا في حقيقة الأمر نعيش التسليم الرسولي الذي لا يسمح لنا بأن نقدِّم شرحًا ما مهما كانت مصادره، من غير المصادر الآبائية. لأن الآراء الشخصية لا تنبع عادةً من الرؤية المتكاملة لوحدة الحياة والعقيدة والليتورجية والسلوك أو الحياة اليومية. والغموض والحيرة الذي يسود فكرنا المعاصر، مصدره الأساسي هو انقسام الفكر البشري بسبب تنوُّع مصادر التعليم، وبسبب الابتعاد عن روح الآباء، بل وعن الأسلوب الرسولي الذي اتبعه الآباء في شرح العقيدة. وعلى سبيل المثال لا الحصر، لا تأخذ الأرثوذكسية عقائدها من الكتاب المقدس، لأن التسليم الرسولي سبق تدوين أسفار العهد الجديد كلها، وإنما تحظى العقيدة الأرثوذكسية بشهادة واضحة للتسليم الرسولي المكتوب المعروف باسم الكتاب المقدس. وبالتالي نحن لا نختلف حول تفسير نصٍّ من نصوص الكتاب المقدس، فهذا هو منهج الهراطقة ومنهج الشِّيع التي انبثقت عن حركة الإصلاح. والهراطقة يختارون عدة نصوصٍ معينة لتأييد وجهة نظرهم، والشِّيع تحارب بعضها البعض بسببِ نصٍّ أو أكثر. وكما نعرف تاريخيًا، كانت البروتستانتية هي التي أقامت الكتاب المقدس ضد التسليم السائد في الغرب، ووضعت الكتاب المقدس كنقيضٍ للتقليد أو التسليم

الرسولي، وفرزت العقيدة على أساس ما جاء في الكتاب المقدس، وبذلك صار الكتاب المقدس المصدر الرئيسي للخلافات الشخصية.

ويعرف القارئ أن الخلاف بين كل مدارس البروتستانتية هو خلافٌ على نصٍّ أو أكثر من نصوص الكتاب المقدس، وهو الخلاف الذي مزَّق حركة الإصلاح وحوَّلها إلى حركة تشيُّع وتمذهُب.

ولم يكن لدى الآباء قواعد لاهوتية لتفسير نصٍّ من نصوص الكتاب المقدس[1]، بل يتحدث الآباء في كتبهم عن ثلاثة دعائم أساسية لفهم الكتاب المقدس كله، وليس لفهم نص أو عدة نصوص. هذه الدعائم نراها في رد القديس أثناسيوس على الأريوسية، وهي كما يلي:

أولًا: المجال، أي الموضوع العام كما يظهر أولًا في العقيدة نفسها مثل لاهوت الابن أو تجسُّدِه، ولذلك فإن ما يقدِّمه الكتاب المقدس من حقائق خاصة بالابن يجب أن تتوزَّع على موضوعين؛ الأول أزلية الابن، والثاني هو تأنُّسه. وتقسيم موضوعات ونصوص الكتاب المقدس إلى قسمين يجب أن يتم على هذا الأساس.

ثانيًا: التسليم الكنسي أو المعنى الكنسي، وهو ما يحدده القديس أثناسيوس بدقة تامة بأنه المعاني التي نراها في الصلوات وتجعلنا نصلي ونعبد الله ونمارس الأسرار بشكلٍ معيَّنٍ. والمعنى الكنسي نراه في قانون الإيمان وفي صلوات الليتورجية ونتعلمه من ممارسة الكنيسة نفسها.

---

(١) لاحظ أيها القارئ أننا لا يجب -حرصًا على سلامة التعليم- أن نقول كلمة "آية"، فليس في الكتاب المقدس "آيات"، وإنما الكتاب المقدس هو كلمة الله التي نطق بها الأنبياء بالروح القدس (٢ بط ١: ٢١)، وليس هو آيات، لأن الآيات تعني أن الكتاب المقدس هو تنزيلٌ من عند الله، في حين أن الوحي ليس مثل التنزيل، ولا يمكن مصالحة العقيدتين مهما حاول الذكاء البشري أن يصالحهما.

ثالثًا: ما استقر في الحياة الكنسية وتواتر وتشهد له الأسفار المقدسة والتسليم الحي الذي تعرفه جماعة المؤمنين وحدَّدته الكنيسة بالإجماع العام. وهنا لا يختار الآباء نصوص الكتاب المقدس التي توافق رأيًا ولا يتم اختيار النصوص حسب الكم، بل الذي يجمع نصوص الكتاب المقدس ويوحِّدُها في صياغةٍ محددة هو "الحس الروحي" الذي تحدده أربعة دعائم أساسية في الأرثوذكسية:

١- التعليم الخاص بالله، أي أنه ثالوث في وحدانية ووحدانية في ثالوث.

٢- التدبير أو تجسُّد الابن الأزلي في الزمان، والذي على أساسه هو إلهٌ وإنسانٌ في أقنومٍ واحدٍ هو أقنوم الابن المتجسِّد.

٣- تدبير الخلاص الذي فيه أُعيد الإنسان إلى رتبته الأولى وأُعطيَ نعمةً أعظم من النعمة الأولى التي وُهِبَت له عندما خُلِق. وعلى هذا الأساس بالذات يكشف الآباء ضعف الهرطقات لأنها تسعى إلى هدم الخلاص والإبقاء على الإنسان كما كان قبل الخلاص أو بحالته الطبيعية الأرضية التي لا دخل للسماء، أي الله فيها.

٤- تدبير عمل الروح القدس في الكنيسة، لأن علاقتنا بالمسيح الممجد الجالس عن يمين الآب لا تتم إلَّا من خلال الروح القدس الذي يعمل في العقل والقلب لكي يفتح رؤية الإنسان الروحية وتجعله يقبل النعمة الإلهية في الأسرار.وهكذا يُولد ذلك "الحس الروحي" من خلال الممارسة والصلاة. والأرثوذكسي الصحيح ليس هو مَن يقدِّم أكبر حشدٍ من نصوص الكتاب المقدس، وإنما هو الذي يعتني بتقديم نصوص الكتاب المقدس

من خلال شهادة وخبرة حية وممارسة حياة القداسة. فليس كل مَن يقول "يا رب يا رب» يدخل ملكوت السموات، بل الذي يحيا كتلميذٍ للرب ويتمسك بقاعدة التلمذة التي تحددها الدعائم الأربعة السابقة.

وهكذا أيها القارئ عليك أن تسأل كيف يجب أن نفهم نصوص الكتاب المقدس الخاصة بالإنسان كصورة الله حسب قواعد التفسير التي قدَّمها القديس أثناسيوس الرسولي في ردِّه على الأريوسية.

أولًا: المجال أو الموضوع العام

لا يمكن أن نفهم معنى كلمة "صورة" إلَّا من خلال العقيدة المسيحية الخاصة بخلق الإنسان من العدم. الموضوع العام إذن هو خلق الإنسان، وبالتالي يجب أن نحدِّد معنى كلمة "صورة" في إطار الفرق اللاهوتي الدقيق بين الخالق والمخلوق، وعلى أساس عقيدة الثالوث القدوس.

ثانيًا: التسليم أو المعنى الكنسي

يستطيع القارئ أن يرى أن صلوات الكنيسة الشرقية بشكلٍ خاص تضع خلق الإنسان على صورة الله في كل صلواتها الطقسية، وبالتالي نحن لا نملك أن نفهم معنى كلمة "صورة" إلَّا من خلال المعنى الكنسي للصلاة. وهنا يجب أن يظهر أول فرق دقيق بين الخالق والمخلوق، فالخالق لا يصلي لأحد ولا يطلب ولا يتوسل ولا يترجى، بينما المخلوق لا يمكنه أن يحصل على شيء بدون الصلاة والتوسُّل، وبالتالي **صارت علاقة الصورة بالأصل علاقة صلاة**، وعلاقة مَن يملك كل شيء وهو الله خالقنا، ومن لا يملك أي شيء وهو الإنسان.

ثالثًا: شهادة معلمي الكنيسة وإجماع الآباء

قد يندهش القارئ إذا تأمَّل حياة بعض الآباء، ووجد أن نور الرب يسوع المتجلي على جبل طابور يسطع من أرسانيوس معلم أولاد الملوك، أو يوحنا القصير، أو أبي نفر السائح أو غيرهم. وهكذا يشعُّ ذلك النور الإلهي الذي أخذوه في المعمودية وتجلَّى في حياة النسك، وصار هؤلاء صورة المسيح الحية. وبالتالي نرى أن صورة الله ومثاله التي أُعطيت للإنسان ليست موضوعًا مجهولًا عابرًا لا نعرفه، وإنما نراه أولًا في المسيح، فهو صورة الله (كو ١: ١٥)، وفي القديسين لأنهم صورة المسيح حسب قول الرسول بولس "تمثلوا بي كما أنا أيضًا أتمثل بالمسيح" (١ كو ١١: ١). وبالتالي يجب أن نرى معنى الصورة والمثال في إطار تجسُّد الابن وموته وقيامته وتجلي صورته الإلهية المتجسِّدة، وعلى أساس ما ظهر في حياة القديسين. وشهادة القديسين هنا ليست شهادةً لفظيةً أو شهادةً بالكلام، بل هي تجلي مجد المسيح بصورة علنية منظورة، وهو المجد الذي لا تراه العين التي لم تَنل نور الروح القدس، بل الذين تكوَّن وتصوَّر المسيح فيهم (غلا ٤: ١٩)، هؤلاء يقدِّمون شهادةً حيةً عن عمل الله فيهم، وتصبح شهادتهم دعامة أساسية لفهم الخلاص.

الفصل الثالث

دعائم الأرثوذكسية لفهم الخلاص

أولًا: التعليم الخاص بالله؛ عقيدة الثالوث:

قد يبدو للقارئ أننا نقحم الله في كل شيء، وأن الإشارة إلى عقيدة الثالوث في الكلام عن النعمة أو خلق الإنسان أو الخلاص يبدو كما لو كان بعيدًا تمامًا عن عقيدة الثالوث، لكن ذلك هو عين الخطأ، وهو خطأٌ قاتل وقعت فيه مدارس اللاهوت في الغرب في العصر الوسيط، وتحت تأثير الفلسفة صاغت فكرًا لاهوتيًا يبدو من الخارج "مسيحيًا» في حين أنه في جوهره فكرٌ فلسفيٌّ يقوم على قواعد المنطق والعقل وليس على مبادئ الملكوت.

بادئ ذي بدء، عقيدة الثالوث هي دعامة كل شيء صحيح وإلهي في الأرثوذكسية، ولهذا أجمع الآباء -وبشكلٍ خاص- القديس أثناسيوس على أن كل شيء يعمله الآب بالابن وفي الروح القدس، وهي عبارة تتكرر في مقالاته ضد أريوس، ورسائله إلى سرابيون عن الروح القدس[٢]. ومن هنا

(٢) يقول القديس أثناسيوس في الرسالة الأولى: ٢٠: "ومع ذلك فيمكننا أن نعالج هذه الصعوبة أولاً، بالإيمان، وبعد ذلك باستعمال ما سبق أن ذكرناه من أمثلة أي: الصورة والشعاع، والينبوع والنهر، والجوهر والرسم. وكما أن الابن هو في الروح الذي هو صورته الخاصة، هكذا الآب أيضاً في الابن. لأن الكتاب الإلهي، لكي يعالج عجزنا عن شرح وفهم هذه المعاني بالكلمات، قد أعطانا مثل هذه الأمثلة، حتى بسبب عدم إيمان هؤلاء المتجاسرين، يمكننا أن نعرض بأكثر وضوح، وأن نتكلم بدون التعرض لخطر (الضلال)، وأن نفكر بطريقة مشروعة، **وأن نؤمن بقداسة واحدة مستمدة من الآب بالابن في الروح القدس**". كما يقول في الفقرة ٣٠: "وهذا هو ما علَّم به الرسول أيضاً حينما كتب إلى الكورنثيين في الرسالة الثانية قائلاً: "نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس مع جميعكم" (٢كو ١٣: ١٣). **لأن هذه النعمة والهبة تعطى في الثالوث من الآب بالابن في الروح القدس**، وكما أن

يظهر لنا بكل وضوح أن الكلام عن الثالوث هو في حقيقة الأمر شرحٌ لثلاث دعائم أساسية:

أولًا: ينبوع الخلاص الأزلي، أي الله نفسه.

ثانيًا: الإعلان عن هذا الخلاص في الزمان وفي التاريخ بمجيء الابن وتجسُّده وصلبه وقيامته.

ثالثًا: حلول الروح القدس لكي يُعطي ويهِب ويجمع ويملأ ويقدِّس، وهي الأفعال التي استُخدِمَت لعمل الروح القدس. ونحن نذكرها هنا في إيجازٍ شديد، ولكن هذه الأفعال -كما نرى- كلها تؤكِّد أن علاقتنا بهذا الخلاص إنما تبدأ وتنمو بعطية الروح القدس وتكمل حتى الامتلاء بعمل الروح القدس.

هذا يضعنا أمام حقيقة هامة قد تغيب عن الأذهان؛ وهي أن عمل الله الثالوث هو أساس التمييز بين الخالق والمخلوق، وأننا لا نتكلم عن الله كخالقٍ فقط، بل هو الآب خالق كل الأشياء بابنه يسوع المسيح ربنا، وبالتالي فعلاقة الخالق بالخليقة هي من خلال الابن، الأمر الذي يقتضي منّا أن لا نتكلم بشكلٍ عقلاني "ومجرد" عن الخالق والمخلوق، بل عن الخالق الذي أرسل ابنه ليكون واحدًا من هذه الخليقة، ولكي يجمع كل شيء في السماء وعلى الأرض في شخصه وتحت رئاسة ربوبيته وحسب تعبير الرسول بولس تحت رأسٍ واحد (أف ١: ١٠، ٢٢).

وهكذا لا يكتب القديس أثناسيوس مقالته الأولى ضد الأريوسية لكي يجيب على اعتراضات الأريوسية فقط، بل لكي يشرح أيضًا عمل الابن

النعمة المعطاة هي من الآب بالابن، هكذا فانه لا يكون لنا شركة في العطية إلا في الروح القدس. لأننا حينما نشترك فيه تكون لنا محبة الآب ونعمة وشركة الروح نفسه". الرسائل عن الروح القدس إلى الأسقف سرابيون، مركز دراسات الآباء بالقاهرة، سلسلة نصوص الآباء رقم ٣١، ترجمها عن اليونانية وأعد المقدمة والملاحظات د. موريس تواضروس، ود. نصحي عبد الشهيد، مايو ١٩٩٤.

الخالق والمخلِّص وعلاقته بالخليقة كواحدٍ منها بسبب تأنُّسِه، وكربٍّ ومخلصٍ جاء بعطفٍ ومحبةٍ فائقة لكي يقدِّم حياةً جديدةً للخليقة.

ولعل القارئ الذي درس مقالات القديس أثناسيوس قد لاحظ أن الكلام عن الإنسانية هو كلامٌ عن "الخليقة"، لئلا يتسرب إلى ذهن القارئ أن الإنسان لا ينتمي إلى الخليقة، وحتى يدرك القارئ أن الكلام عن الخليقة إنما يستدعي الكلام عن الخالق الابن الكلمة.

وهكذا يظهر لنا بوضوح أننا لا نتكلم عن الخالق والمخلوق بدون تجسُّد الابن، وأننا لا يمكن أن نتكلم عن المسيح إلَّا على أساس أنه الخالق الكلمة الأزلي الذي لأجلنا جاء وتجسَّد.

ونحن لا نتمسك بهذه الدعامة، ليس فقط لأننا نتبع الآباء والرسل، بل ولأن قلب وجوهر الإنجيل هو أن الله هو مخلصنا، وأن الهوية المسيحية -كما يؤكد القديس أثناسيوس في بداية مقالته الأولى في الرد على الأريوسيين- هي هويةُ مَن يؤمن بالمسيح ربًّا ومخلصًا، وأننا لا نقبل أن يُطلَق علينا أيُّ اسمٍ آخر غير اسم المسيح، لأنه الاسم الوحيد الذي أُعطيَ لنا، الذي به وحده نستطيع أن ننال الخلاص (أع ٤: ١٢). وهكذا، إذا تتبعنا علاقة الخالق بالمخلوق ليس بصورة فلسفية عقلانية، بل حسب بشارة الإنجيل، لوجدنا أن الخالق هو الآب وأنه خالق كل الأشياء بابنه وأنه في الابن يجمع الخليقة حوله من جديد ويقدِّسها ويكملها بالروح القدس. ولكن ذلك لا يكفي رغم أهميته القصوى؛ لذلك يجب أن ننتبه أيضًا إلى أن الابن هو واحدٌ مع الآب، وبتجسُّدِه دخلت الخليقة فيه إلى أحضان الآب، وهذا هو ما يجعل كنيسة أثناسيوس تقول دائمًا في نهاية كل ترنيمة للثالوث أو للابن "لأنه جاء وخلصنا".

ماذا تقدم لنا عقيدة الثالوث؟

يعلِن الله عن ذاته وحياته ومحبته للإنسانية على أنه ثالوث هو الآب والابن والروح القدس. وأول إعلان نراه هو "**علاقة**" الأقانيم، فهي علاقة "**شركة**" وعلاقة "**وحدة**" وعلاقة "**تمايُز**" تقوم على تثليث الأقانيم وتوحيد الجوهر الإلهي. ولكن ماذا يفيد الإنسان من الله الثالوث، وأن الثالوث هو علاقة وحدة وشركة وتمايز في الجوهر الواحد؟ هنا يلزمنا أن نرى أن دعامة الخلاص التي دافع عنها الآباء بكل قوةٍ وحزم، هي أُلوهية المخلص وأزليته، وأنه ليس واحدًا من المخلوقات، رغم تجسُّدِه وتأنُّسِه. هذا لم يكن مجردَ دفاعٍ عن الحق، وإنما هو دفاعٌ عن مصير الإنسان نفسه، وهو مصير أبدي يُعطى من الله المخلص عطيةً وهِبةً في ابنه يسوع المسيح.

ولكن هذه النظرة العامة لا تكفي، بل يجب تحديد هذا الأساس الإلهي، وهو كما نرى علاقة الابن بالآب، فالآب هو الذي أرسل ابنه "لكي نحيا به" (١ يو ٤: ٩)، والابن جاء لكي يقدِّم لنا -من خلال علاقته الخاصة بالآب- هذا الخلاص. ومن خلال هذه العلاقة الخاصة بالآب، باعتباره الابن الوحيد، نشترك نحن فيه أي في الابن، لكي ننال من خلال الابن شركةً في علاقته الخاصة بالآب. ولذلك يقول الرسول يوحنا: "أما نحن فشركتنا هي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح" (١يو ١: ٣). هذه الشركة مع الآب لا تنبع من داخلنا نحن، ولا نملك نحن فيها شيئًا، وإنما هي شركة الآب والابن، وهي شركة في الجوهر الواحد، وشركة في الخلاص الواحد الذي يعمله الآب بالابن. ونحن دُعينا إلى هذه "الوليمة"، أي "وليمة عُرس الحَمَل" ابن الله. وإصرار العهد الجديد على استخدام هذه التعبيرات، إنما يؤكد أن "المدعوِّين" لا يملكون شيئًا، وأن كرم الضيافة وصلاح صاحب الوليمة وتنازُل ابن الملك لكي يخطب الإنسانية الفاسدة الخاطئة هو سر هذا الاحتفال الرهيب الأبدي الذي يفوق فرح الحاضرين

فيه كلَّ فرحٍ آخر. لذلك، لو كان الابن بلا شركة مع الآب وبلا شركة في الآب لَتعذَّرَ علينا أن نتكلم عن شركتنا مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح. وهكذا يقدِّم لنا الرسول بولس خلاصة عقيدة الثالوث في عبارة واحدة: "نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله الآب وشركة الروح القدس مع جميعكم" (٢كو ١٣: ١٤). نحن ندخل بالنعمة إلى محبة الآب وننال كل شيء من الروح القدس الذي يأخذ من الآب والابن ويعطي الإنسانية (يو ١٦: ١٤ - ١٥). ومن شركة الأقانيم انفتح لنا مجال الشركة في مجد الله نفسه حسب عبارة الرسول بطرس: "أنا الشيخ .. الشاهد لآلام المسيح وشريك المجد الذي سوف يُعلَن" (١بط ٥: ١)، وصرنا "شركاء في النعمة" (في ١: ٧)، بل صار الخدام العاملين بقوة الروح القدس ومع الروح القدس "شركاء الروح القدس" (عب ٦: ٤)، ودُعينا نحن لأنْ نشترك في قداسة الآب والابن والروح القدس (عب ١٢: ١٠).

وتأمَّل أيها القارئ؛ كيف يُقال عن الإنسان التراب إنه "وارثٌ":

"فَإِنْ كُنَّا أَوْلاَدًا،

فَإِنَّنَا وَرَثَةٌ أَيْضًا،

وَرَثَةُ اللهِ،

وَوَارِثُونَ مَعَ الْمَسِيحِ" (رو ٨: ١٧).

وهنا يجب أن يُقال إن الله ينادي الإنسان "كعبدٍ»، ويؤكد استخدام هذا الاسم لأنه صحيح، ولكن الإنسان لا يدخل كعبدٍ، لأن الرسول بولس يقول إن العبد لا يرث مع الابن، وإنما يكتشف الإنسان أنه نال حظوة الابن ومقام الابن، وإلَّا كيف يرث العبد خالقه إذا كانت علاقته بالخالق مقطوعة، أو تقوم على تناقض مطلق تحدده الفلسفة والفكر العقلاني الذي لا يأخذ نور الإدراك من نور الرب أي نور الإنجيل؟ ولقب "العبد" كما ورد على لسان الرب هو لقب صحيح واسم حقيقي (مت ١٠: ٢٤)،

وهو لقبٌ خاصٌّ بالطبيعة الإنسانية كما هي بدون النعمة، ولكن لما أُعلنت محبة الآب، يقول الرب نفسه: "أنتم أحبائي .. لا أعود أُسميكم عبيدًا لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده. لكني قد سميتكم أحباء لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي" (يو ١٥: ١٥). وجديرٌ بنا أن نقف بُرهةً عند ذلك الخادم الأمين الذي دعا نفسه "عبد يسوع المسيح"، ولم يتأخر عن أن يقول إنه "عبدٌ" للذين يخدمهم (٢كو ٤: ٥)، لأن الرب جاء وأخذ صورة العبد (فيلبي ٢: ٦-٩). وهنا يجب أن نلاحظ أن مجد الابن لم يتبدد مع صورة العبد، وصورة الله ظلَّت مع صورة العبد في الأقنوم الواحد لأنه إلهٌ وإنسانٌ، واحدٌ من طبيعتين، وبالتالي تمجَّدت صورة العبد بمجد الابن، وصارت النعمة تُعطى "للعبيد" لكي ينالوا مجد ميراث السماء، ويدخلوا ليس كعبيد بل كأبناء وارثون مع المسيح الذي لم يدخل إلى ملكوت مجده كعبد، بل كابن الله الوحيد. وهنا تتحول طاعة العبد (رو ٦: ١٦) إلى طاعة محبة، أي طاعة ابن مع طاعة الابن الذي في تدبير أيام تجسُّدِه رغم كونه ابنًا تعلَّم الطاعة (عب ٥: ٨) وهكذا قيل عنّا بحق إننا "أولاد الطاعة" (١بط ١: ١٤ و٢٢).

يؤكد هذا بكل وضوح معلمنا القديس أثناسيوس الرسولي بقوله:

«وحيث أننا عبيدٌ، فمن الصواب إذن أنه عندما صار مثلنا يدعو هو نفسه الآب ربًّا كما ندعوه نحن. وقد صنع هذا لمحبته للبشر لكي نتشجع نحن الذين بحسب الطبيعة عبيد - نتشجع بقبولنا روح الابن - أن ندعو الآب أبًا بحسب النعمة، وهو ربٌّ لنا بحسب الطبيعة، وكما أننا حينما ندعو الرب أبًا لا ننكر عبوديتنا له بحسب الطبيعة، لأننا نحن عمله وهو صنعنا وليس نحن (مز ١٠٠: ٣)»

(ضد الأريوسيين ٢: ٥١ – راجع أيضًا ٢: ٥٩).

ثانيًا: شركة الآب والابن والروح القدس في الجوهر الواحد:

يقول القديس أثناسيوس: "الآب هو أصل الابن" (ضد الآريوسيين ١: ١٤)، لأن النور لم يكن بلا شعاع، ولا الينبوع جافًا وعقيمًا" (ضد الآريوسيين ١: ١٤ وأيضًا ١: ١٩).

وفي صياغةٍ دقيقةٍ يسأل الأريوسيين:

> «إذا قلتم إن الابن جاء من العدم وأنه لم يكن كائنًا قبل أن يُولد؛ صار من الضروري أن تقولوا إنه يُدعى ابن الله وحكمة الله بحسب المشاركة فقط في الله وفي حكمته قبل سائر المخلوقات وأنه تقدَّس وتمجَّد مثلها. وهكذا وَجَبَ عليكم أن تقولوا لنا ما الذي يشترك فيه الابن ويصبح بذلك شريكًا فيه؟ هل هو يشترك في الروح؟ كلا بل بالحري الروح القدس الذي تشترك فيه كل الكائنات يأخذ من الابن - كما قال الابن نفسه - ... وعندما يقول الآب «هذا هو ابني الحبيب»، وعندما يقول الابن إن الآب هو أبيه الذاتي (الخاص به) يصبح من الواضح أن شركة الابن في الآب ليست شركة خارجية، ولكنها شركة في جوهر الآب»
>
> (ضد الأريوسيين ١: ١٥).

وهكذا يقدِّم القديس أثناسيوس التعليم الأرثوذكسي السليم مؤكِّدًا الشركة في جوهر الثالوث، لهذا يشرح بعد ذلك مباشرةً سبب الدفاع عن هذا التعليم الخاص بالمسيحية بقوله:

> «وهكذا تشترك كل الكائنات في الابن نفسه حسب النعمة التي تُعطى بواسطة الروح القدس الذي يعطيه الابن، وهذا يؤكد أن الابن لا يشترك في شيء وأننا نحن نشترك في الآب من خلال الابن، ولذلك قيل إننا نشترك في الله، وهذا ما يقوله القديس بطرس «لكي تصيروا شركاء الطبيعة الإلهية» (٢بط ١: ٤)».
>
> (ضد الأريوسيين ١: ١٦).

ولكن معلمنا أثناسيوس لا يتركنا أمام غموض الشركة. فالله الذي فتح أحضانه للإنسانية في المسيح، ليس شيئًا قابلًا للنهب والسرقة، يأخذ منه الإنسان بدون حساب، أي أنها ليست شركة تؤدي إلى مزيد من الخطايا، بل شركة تقدِّس وتطهِّر من الخطايا، ولذلك كما يقول أثناسيوس بعد الكلام عن الشركة في الطبيعة الإلهية:

> «أما الطبائع المخلوقة فهي لا تشبه جوهر خالقها، بل هي كائنة خارج جوهر خالقها لأنها خُلقت بواسطة الكلمة وبسبب نعمته وإرادته، ولذلك هي قابلة للفناء إذا شاء خالقُها أن يعيدها إلى العدم لأن هذه هي طبيعة المخلوقات».
>
> (ضد الأريوسيين ١: ٢٠).

وهنا يظهر لنا فورًا الفرق الكبير بين شركة الجوهر وشركة النعمة. وربما لاحظ القارئ أن المخلوقات كائنة خارج جوهر الله، وأنها غريبة عن جوهر خالقها مُعلَّقةٌ في البقاء بإرادة ومسرة الخالق، ويمكن أن تعود إلى العدم لو شاء الله ذلك. ويقدِّم القديس أثناسيوس الفرق الأول بين الشركة في الجوهر والشركة في النعمة بقوله:

> «الله لا يجعل الإنسان المثال الذي يتشبَّه به الله، وإنما نحن البشر الذين نجعل الله مثالًا لنا لأنه حقًا يُدعى آب الابن، والآب لكل أولاده، والذي منه هو تُسمى كل أُبوة في السماء وعلى الأرض» (أفسس ٣: ١٥).
>
> (ضد الأريوسيين ١: ٢٣).

وتشبُّه الإنسانية بالله يعني أن الله هو أصل كل الأشياء، ومنه تأخذ كل الكائنات الوجود والحياة والحركة، ويصبح هو مثال الكينونة الكاملة، أمَّا نحن فإننا كما يقول أثناسيوس "خارج الجوهر"، وهي عبارة يكررها معلمنا أثناسيوس دائمًا (راجع على سبيل المثال ضد الأريوسيين ١: ٢٩).

و"خارج الجوهر" تعني حسب كلمات أثناسيوس نفسه أن الخليقة ليست أبدية، وأنها جاءت إلى الوجود بواسطة الكلمة، وبالتالي فهي لا تشبه جوهر الله في شيء، ولا هي مثل الكلمة. وبعد ذلك يؤكد أثناسيوس أن عصيان الله يعني أن تفقد الخليقة النعمة. ويأخذ أثناسيوس كلمات إشعياء النبي نبراسًا على ضعف وعجز الخليقة. ويقارِن أثناسيوس بين ولادة البشر وولادة الكلمة من الآب مؤكِّدًا أن الطبيعة تلد طبيعة مماثلة لها في الجوهر، وبالتالي اسحق مثل إبراهيم ويعقوب مثل اسحق والده، وأن الشعاع هو مثل الشمس، وذلك يقود إلى سؤالٍ هام: وماذا عن الذين قيل إنهم أبناء الله؟ وهنا يعود أثناسيوس إلى الدعامة الأساسية، وهي عدم مشابهة الجوهر للنعمة بالمرة:

> «الذين قيل إنهم أبناء بسبب الفضيلة وبسبب النعمة، وقد أضيفت النعمة إلى طبيعتهم فصاروا بالعطية أفضل مما هم بالطبيعة، مثلما يحدث للبشر الذين يأخذون الروح ويشتركون فيه والذين قال عنهم الكتاب: «ولدتُ ومجَّدتُ أبناءً ولكنهم عصوني» (إشعياء ١:٢س). ولأنهم ليسوا أبناء بالطبيعة، فعندما تغيَّروا أُخِذَ منهم الروح ولم يبقوا في الشركة، ولكن عند توبتهم سوف يقبلهم اللّٰه الذي أعطاهم النعمة في البدء (عند خلقهم)، وسوف ينيرهم من جديد ويدعوهم مرةً أخرى أبناء» (ضد الأريوسيين ١ : ٣٧).

وهذه العبارات على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية؛ أولًا لأن الشركة في النعمة لا تغيِّر الطبيعة المخلوقة إلى طبيعة غير مخلوقة، بل تمجِّد الطبيعة المخلوقة وترفع من شأنها، وتظل الطبيعة المخلوقة كما كانت قادرة على أن تترك النعمة، وطبعًا تفقد مكانتها، ولكن في حالة التوبة تعود من جديد إلى نعمة الله. هذا فرقٌ كبير لا يمكن أن نغفله بالمرة، لأن النعمة التي

تُضاف إلى الطبيعة، تُضاف إليها من الخارج، أي أنها ليست من جوهر وكيان المخلوقات، ولذلك يمكن أن تفقدها، بينما لا تملك المخلوقات أن تفقد طبيعتها إذ تظل فيها بقايا من الطبيعة الأصلية التي خُلِقَت بها رغم انحدارها نحو الشر. **وهنا يبرز الفرق بين ما هو بالجوهر وما هو بالنعمة، وهو ليس فقط عدم تغيُّر الله وإنما عدم تغيُّر المخلوقات إلى جوهر الله.** ولعل أخطر ما في هذه النقطة بالذات هو أن يلاحظ القارئ أن تمجيد المخلوقات هو تمجيدٌ مشروط ويعتمد على تقدُّم المخلوقات في الفضيلة، وبقاء المخلوقات في النعمة. ولذلك يؤكِّد القديس باسيليوس في كتاب "الروح القدس" على أن الرُّتب والطغمات السماوية نفسها تفقد مكانتها السماوية بدون نعمة التقديس التي يعطيها روح التقديس، أي الروح القدس (الروح القدس ١٦: ٣٨)[٣]. وهذا يؤكد لنا أن الشركة في الطبيعة الإلهية لا تعني بالمرة تحولًا في كيان الإنسان ليصبح مثل الله، لأن هذا يتعارض مع الحقائق التالية:

أولًا: الخلق من العدم:

وكما ذكرنا سابقًا نعيد تأكيد نفس الكلام؛ أن الفرق بين الواجب الوجود أو حسب تعبير الآباء أنفسهم "الكائن بذاته"، وبين مَن نال نعمة الوجود هو فرقٌ لا يمكن أن تحدده اللغة البشرية بالدقة المطلوبة، لأنه:

---

(٣) يقول القديس باسيليوس: "وبالإضافة إلى ما ذكرناه، يمكن أن نتعلم من المخلوقات التي خُلقت في البدء، ما هي شركة الروح القدس مع الآب والابن. فالقوات النقية العاقلة التي تفوق الخليقة الظاهرة، هي مقدسة وتظل كذلك؛ لأنها تنال نعمة التقديس بواسطة الروح القدس، مع أن الصمت يحيط بالطريقة التي خُلِقَت بها القوات السمائية؛ لأن مؤرِّخ الخليقة أعلن لنا فقط خلق الكائنات المنظورة. وأنت يا من لديك قدرة إدراك، تستطيع بالمقارنة بالخليقة المنظورة أن تدرك الخليقة غير المنظورة، وتمجِّد الخالق الذي خُلِقَت به كل المخلوقات المنظورة والغير المنظورة، الرئاسات والسلطات والقوات والعروش والسيادات وكل الطبائع العاقلة التي لا نعرف أسمائها (راجع كولوسي ١: ١٦)". راجع ترجمتنا لكتاب الروح القدس للقديس باسيليوس الكبير أسقف قيصرية، طبعة ثانية مزيدة ومنقحة، جذور للنشر، القاهرة، ٢٠١٤، ص ١١٥.

(أ) فرقٌ بين مَن يملك حياته وكيانه، ومَن لا يملك حياته وكيانه. وهذا يعني ان الله "عزيز" بينما الإنسان بلا عزة ولا مِنعة ولا كرامة إلَّا ما تُعطي له نعمة الوجود.

(ب) أن الله ليس لديه بدء ولا مصير أخروي، ولا يبحث عن مصدر للحياة، ولا ينال معرفته من آخر، بينما الإنسان معلَّقٌ بإرادة الله، باقٍ طالما رضى الله وسُر ببقائه. ينال حياته واستمرار بقائه ومصيره الأخير من الله. وتلخِّص كلمة "عبد" كل هذا في دقة. فالعبد معلَّقٌ بإرادة سيده، ويحظى بكل ما يُنعم به عليه السيد. ومصدر حياته ومعرفته، إنما يصل إليه من إشراق نور المعرفة الإلهية عليه، أي انه يستمد معرفته من الله.

ثانيًا: الفرق بين الجوهر والنعمة:

شركة أقانيم الثالوث في الجوهر الواحد هي شركة طبيعة، فالآب والابن والروح القدس لهم طبيعة إلهية واحدة حسب اعتراف كل آباء الكنيسة. وهنا بالذات لا يوجد فرقٌ بين كلمة "جوهر" وكلمة "طبيعة" لأن الله روحٌ بسيطٌ لا يوجد فيه تركيب ولا توجد فيه طبائع مختلفة، وطبيعة الآب هي ذات طبيعة الابن، لا يوجد بينهما اختلاف على عكس ما جاءت به الأريوسية.

ولأن الله طبيعة واحدة لا انقسام فيها ولا تغيير، كان تسليم آباء الإسكندرية أن كلمة "جوهر" وكلمة "طبيعة" تُستَعمَل بنفس المعنى في الكلام عن الثالوث. ولنفس السبب -أي أن كلمة "جوهر" هي نفسها كلمة "طبيعة"- كان تعليم آباء الكنيسة أن الآب والابن والروح القدس إرادة واحدة ومشيئة واحدة لأنهم طبيعة واحدة.

أمَّا النعمة، فهي تُعطى من خلال تدبير الخلاص، وفي إطارٍ أعلنه الابن

المتجسِّد في ناسوته. وما يُقاس هنا ويتم تحديده بدقة بالغة، ليس مقارنة النعمة بجوهر الثالوث وإنما ردُّ النعمة إلى مصدرها الأساسي، وهو تجسُّد الابن، أي ناسوت الابن الكلمة. فالنعمة تُعلَن في تجسُّد الابن، أي أنها إعلانٌ في الزمان أو في التاريخ يتضمن التغيير الجذري في طبيعة الانسان المفتَدَى، ليكون على صورة مخلِّصه وفاديه، أي ربنا يسوع المسيح ابن الله. وهنا يصبح الفرق بين الجوهر والنعمة هو فرقٌ بين الخالق الأزلي وما أُعلِن في الزمان، وهو ليس فرقًا بين الأزلي والتاريخ كما يبدو على السطح، وإنما هو فرقٌ بين ما هو كائنٌ بالطبيعة وما تكوَّن في الزمان، أي الخليقة الجديدة. هذه الخليقة الجديدة كما يحددها معلمنا أثناسيوس؛ هي آدم الجديد أو آدم الثاني، وهو ليس شخصًا آتيًا من سلالة آدم الأول فقط، بل يحمل في كيانه أصل السلالة البشرية الآدمية، ولكن هذه السلالة متكوِّنة هذه المرة ليس بقوة الولادة الطبيعية، بل بقوة الولادة الجديدة التي أُعلنت في ميلاد الرب يسوع من البتول القديسة مريم والدة الإله.

ثالثًا: تجسُّد الرب من العذراء:

ويشرح معلمنا أثناسيوس تجسُّد الربِّ من البتول بهذه الكلمات:

«والجسد قد وُلِدَ من مريم والدة الإله، ولذلك يُقال عن الكلمة إنه هو الذي وُلِد رغم أنه هو الذي يمنح كل الكائنات البقاء لأنه أصل وجودها، ولكنه وُلِدَ لكي يحوِّل transfer أصل وجودنا إلى ذاته حتى أننا لا نعود إلى التراب كترابيين لأننا التصقنا بالكلمة الذي من السماء ويحملنا هو إلى السماء ... وهكذا لا نموت حسب طبيعة أصلنا الذي من آدم، وإنما لأن أصلنا وكل ضعفات الجسد (بعد تجسُّد الكلمة) قد نُقلت أو حُوِّلت للكلمة، لذلك نقوم من التراب

بعد أن أُزيلت لعنة الخطية بسبب الكلمة الذي فينا والذي صار لعنةً لأجلنا. وسبب موتنا هو أننا أُخذنا من آدم ومن التراب، ولذلك في آدم نموت، أمَّا الآن فإننا بعد أن وُلِدنا من فوق من الماء والروح في المسيح فإننا جميعًا نقوم، والجسد ليس بعد ترابًا (أرضيًا) بل صار الجسد كلمة logwtheistes (عاقلًا أو تحوَّل إلى طبيعة عاقلة) بسبب الله الكلمة الذي لأجلنا صار جسدًا" (ضد الأريوسيين ٣: ٣٣).

وقبل أن نعلِّق على هذا النص الجميل والواضح، يلزمنا أن ندرس النص التالي من رسالة القديس أثناسيوس إلى أدلفوس:

«لقد صار إنسانًا لكي يؤلِّهنا في ذاته، ووُلِدَ من امرأة وتأنَّس من عذراء لكي يحوِّل (ينقل) جنسنا الخاطئ إلى ذاته لكي نصبح بعد تجسُّده شعبًا مقدسًا وشركاء الطبيعة الإلهية كما كتب المبارك بطرس (٢بط ١: ٤)، وما كان الناموس عاجزًا عنه بسبب ضعف الجسد، أرسل الله ابنه مولودًا في شبه جسد الخطية ولأجل الخطية دان الخطية في الجسد (رو ٨: ٣)»

(الرسالة إلى أدلفوس ٤).

وهنا تظهر معالم الشركة في النعمة وكيف تنال البشرية الكائنة خارج جوهر الثالوث، شركةً في الثالوث من خلال الابن المتجسِّد. وحسب عبارات القديس أثناسيوس نفسه نرى هذه الشركة كما يلي:

١- الكلمة هو علة وجود كل الكائنات.

٢- أصل الكائنات هو العدم.

٣- يأخذ الكلمةُ الجسدَ من القديسة مريم لكي يحوِّل وينقل الإنسانية إلى ذاته، إلى شخصه أو أقنومه، وهنا يتم التحول من العدم إلى ما

هو كائن، أي الابن.

٤- هذا التحوُّل يتم في الابن المتجسد، أي في جسده وليس في لاهوته لأن اللاهوت لا يتحول.

٥- ينقل الرب جسده من حالة الفساد والموت والألم إلى حالة المجد والقيامة والتألُّه.

٦- رغم أن القديس أثناسيوس لا يذكر صَلب ربنا يسوع المسيح وموته، إلا أننا سوف نقدِّم النصوص الخاصة بصلب الرب وقيامته في الفقرة التالية. ومع ذلك يستطيع القارئ أن يلمح وراء كلمات: "تحوُّل ونقل" الناسوت، و"تحوُّل ونقل" أصل الإنسانية من آدم الذي فيه نموت إلى المسيح الذي فيه نقوم، إنما يتم من خلال الاتحاد بين الناسوت واللاهوت وصلب الرب وقيامته والمعمودية المقدسة التي فيها نُولَد من فوق من الماء والروح القدس في المسيح.

٧- يقدِّم القديس أثناسيوس عبارةً هامةً، وهي أننا التصقنا بالكلمة أو اتَّحدنا به، أو حسب الترجمة الإنجليزية *knit* والعربية والإنجليزية قاصرتان عن ترجمة التعبير اليوناني، والذي يعني أكثر من الالتصاق والاتحاد، لأننا في المسيح نصبح معه حسب تعبير الرسول بولس "جسدًا واحدًا" (١كو ١٢: ١٢).

يشير معلمنا أثناسيوس إلى التفسير الخاص الذي تبنَّاه قادة الهرطقة الأريوسية في الفقرة ٣٧ من المقالة الأولى ضد الأريوسيين قائلًا:

> «ولكن حيث أنهم يدَّعون أن الكلمات الإلهية تؤيد رأيهم وتفسيرهم الخاص الذي يفرضونه على الكلمات الإلهية، أصبح من الواجب علينا أن نواجههم ونشرح لهم معنى هذه الفقرة (فيلبي ٢: ٩-١٠) موضِّحين أن هذه الفقرة لها معنى أرثوذكسي وأن المقاومين قد أخطأوا في فهم هذه الكلمات».

وقبل ميلاد القديس أثناسيوس بحوالي ٢٠٠ سنة كتب القديس هيبوليتوس ردًّا على هرطقة تنكر تمايُز أقانيم الثالوث، وتدعو إلى وحدانية الله بدون ثالوث (هرطقة *Noetus*) مؤكِّدًا في الفقرة ٩ من ردِّه أن المعنى الخاص الذي يفرضه الهراطقة على الكلمات المقدسة، إنما يتناقض مع هذه الكلمات بشكلٍ ظاهر يمكن تمييزه. وفي نفس الجيل كتب العلامة ترتليان نفس الكلام في مقالته ضد هرطقة أخرى من نفس المدرسة تتمسك بالتوحيد وتنكر الثالوث (هرطقة *Prax*). فما هو هذا المعنى الخاص الذي يحاول الهراطقة فرضه على الكلمات المقدسة، وكيف يمكننا أن نميِّز هذا المعنى الخاص، ونراه بوضوحٍ كنقيضٍ للمعنى الكنسي؟ وحرصًا على الوضوح نحيل القارئ إلى الفقرة ٤٤ من المقالة الأولى ضد الأريوسيين حيث يقول معلمنا أثناسيوس إن نص (فيلبي ٢: ٩-١٠) **له معنى كنسي هام لا يجب تجاوزه**[٤] (راجع

(٤) "أعتقد إذن أن هذا هو قصد النص الكتابي، وهو قصد كنسي تمامًا. ولكن ربما كانت هناك طريقة أخرى لشرح النص لإعطاء معنى مطابق تمامًا. أي أن النص لا يعنى تمجيد اللوغوس ذاته باعتباره لوغوس (لأنه كما سبق أن قيل منذ قليل، إنه عالٍ وإنه مثل الآب)، ولكن النص يشير إلى قيامته من بين الأموات بسبب تأنسه. فقوله "أذلَّ نفسه حتى الموت" ثم أضاف: "لذلك مجَّده مجدًا عاليًا"، راغبًا أن يبين أنه كإنسان كان يقال عنه إنه قد مات، ولكن

أيضًا رسائله إلى سرابيون عن الروح القدس ٤: ١٥[٥]).

لكونه الحياة رُفِع بالقيامة "فإن الذى نزل هو نفسه أيضًا الذى قام" (أف٤:١٠). لأنه نزل بالجسد، إلا أنه قام لأنه هو نفسه كان إلهًا في الجسد. وهذا أيضا هو السبب الذى من أجله قد مهَّد السبيل إلى هذا المعنى باستخدام أداة الربط "لذلك"، والذى لا يعنى أجرَ فضيلةٍ ولا ترقٍ، ولكنه يكشف السبب الذى بواسطته قد صارت القيامة. ولهذا السبب نفسه مات سائر البشر منذ آدم وحتى الآن، وظلوا أمواتًا، أمَّا هذا وحده فهو الذى قام من بين الأموات كاملًا متكاملًا. وهذا هو السبب الذى من أجله سبق الرسول نفسه وقال: إنه بالرغم من كونه إلهًا فقد صار إنسانًا. أما سائر البشر فقد ماتوا لأنهم من نسل آدم. وقد كان للموت سيادةٌ عليهم (رو٥:١٤). أما هذا فهو "الإنسان الثاني من السماء" (١كو١٥:٤٧)، وذلك لأن "الكلمة قد صار جسدًا" (يو١:١٤) ويقول إن مثل هذا الإنسان "من السماء" و "سماوي" (١كو١٥،٤٨:٤٧) ذلك لأن الكلمة "قد نزل من السماء" (يو٦:٣٨) ولهذا فلم يُقهَر (يُمسَك) من الموت. فرغم أنه أذلَّ نفسه، مسلِّمًا جسده الخاص به حتى الموت، وذلك بسبب قبوله الموت، إلَّا أنه رُفِّعَ رِفعَةً عظيمةً من الأرض، ذلك لأنه هو ابن الله في الجسد. لذلك، فإن ما يقال هنا: "لذلك رفَّعه الله أيضًا"، فهو مساوٍ أيضًا لما قاله بطرس في سفر الأعمال: "الذى أقامه مبطِلًا أوجاع الموت، لأنه لم يكن ممكنًا أن يسيطر عليه سلطانُ الموت" (أع٢:٢٤). فكما كتب بولس "الذى إذ كان في صورة الله" قد صار إنسانًا، و"وأذلَّ نفسه حتى الموت ولذلك مجَّده الله مجدًا عاليًا". وبالمثل يقول بطرس، وحيث أنه إذ كان إلهًا قد صار إنسانًا، فإن الآيات والعجائب كشفت أيضًا للناظرين أنه الله. ولذلك "فلم يكن ممكنًا أن يمسكه الموت" (أع٢:٢٤). والإنسان لم يكن يستطيع أن ينجح في تحقيق هذا، لأن الموت هو خاصٌّ بالإنسان. ولهذا فإن الكلمة الله صار جسدًا، لكى يحيينا بقوته بعد أن مات بالجسد". المقالة الأولى ضد الآريوسيين، مركز دراسات الآباء بالقاهرة، سلسلة نصوص آبائية رقم ٦٤، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٢، ص ١١١ – ١١٢.

(٥) "وقد أخطأ الهراطقة كلٌّ حسب مقدار جهله. البعض منهم نسب كل ما حدث من الرب لجسده (أي كإنسان) وتعاموا عن القول الإلهي "في البدء كان الكلمة" (يوحنا ١: ١). والبعض نسب ما حدث إلى لاهوته فقط، ولم يفهموا القول "الكلمة صار جسداً" (يوحنا ١: ١٤). لكن المؤمن الذي يتبع تعليم الرسل يعرف غنى الرب ومحبته للبشر. وعندما يرى أعماله العجيبة الالهية يمجد الرب الذي ظهر في الجسد. وعندما يرى أعمال الجسد يتعجب ويرى فيها القوة الالهية التي تعمل. **هذا هو إيمان الكنيسة**، ولذلك إذا ثبَّت البعضُ عيونهم على الجانب الإنساني في حياة الرب وشاهدوه يختبر الجوع والتعب والألم يتحدثون عنه بدون تقوى كمَن يتحدث عن إنسانٍ فقط، فيخطئون بذلك خطيئةً عظيمة. وبلا شك إن لم يتأخَّروا في التوبة يمكنهم الحصول على المغفرة لأن ضعفهم الإنساني هو عذرٌ لهم. وحتى الرسول يمنحهم المغفرة، وبطريقةٍ ما يمد يده إليهم لأنهم بالحق يقول: "وبدون جدل، عظيمٌ هو سر التقوى الله ظهر في الجسد" (١ تيموثاوس ٣: ١٦). وعندما يرى البعض أعمال اللاهوت يترددون في الاعتراف بإنسانيته، وهذا خطأٌ بالغ ويتوهمون عندما يقرأون أن الرب يأكل ويتألم أنه خيال، هؤلاء إذا لم يتأخَّروا في التوبة سيغفر لهم يسوع لأنهم لا يفهمون أعماله الفائقة التي أتمَّها في الجسد. وإذا فحصنا جهل هؤلاء وأولئك، أي الذين يخطئون ولهم معرفة بالناموس مثل

ويمكننا أن نميِّز التفسير الخاص استنادًا إلى القواعد الآتية:

أولًا: التفسير الخاص يُنكر الممارسة الكنسية نفسها:

وأول هذه الممارسات هي "سر المعمودية" التي تُمارَس باسم الآب والابن والروح القدس. فالتوحيد بلا ثالوث يفصل فصلًا تامًا بين الكلمات ومعاني الكلمات والتاريخ أو الواقع أو الأحداث نفسها. وقد شدَّد القديس أثناسيوس على هذه الحقيقة وقدَّم المبدأ أو القاعدة المسيحية التي تُميِّز بين اليهودية والمسيحية، وحدَّد هذه في عبارة دقيقة مؤكِّدًا أن الأحداث التاريخية هي التي تُحدِّد معاني الكلمات، وأن تفسير أي نص لا يبدأ بقواعد اللغة، ولا يحدِّد معاني أي كلمة ما استقر في الأدب أو الفلسفة من معاني لكلمات قد تُستَخدَم في كتابات الناس اليومية دون أن يكون معناها الشائع هو ذات المعنى الكنسي الذي تحدِّده الممارسة الكنسية.

وعلى سبيل المثال يوجد فرق بين معنى كلمة "أب" في اللغة البشرية، ومعناها في اللاهوت المسيحي، لأن الأبوة البشرية تحتاج إلى وقت قبل أن يؤكِّدها ويظهرها مولدُ ابنٍ. والفترة الزمنية بين الأب والابن أزعجت الأريوسيين وجعلتهم يعودون إلى اللغة وقواعد المنطق، بل وانحدروا في الإسفاف والسخافة إلى درجة تبرزها قصة شيِّقة عن معلمنا أثناسيوس الذي كان يسير في منطقة ميناء الإسكندرية وشاهد معركةً لفظيةً تحوَّلت إلى تلاحُمٍ وعراكٍ بالأيادي بين مجموعة من تلاميذ أريوس ومجموعة

الفريسيين أو الذين يستسلمون للجنون وينكرون وجود الكلمة في الجسد، أو يذهبون إلى أبعد من هذا عندما ينسبون أعمال اللاهوت إلى الشيطان وجنوده. فإنه من العدل أن تكون عقوبة عدم تقواهم هي عدم المغفرة لأنهم اعتبروا الشيطان مثل الله، وحسبوا أن مَن هو بالحقيقة الله، لا شيء في أعماله يدل على أُلوهيته، بل إنه الشيطان يستخدم أعوانه». الرسائل عن الروح القدس إلى الأسقف سرابيون، مركز دراسات الآباء بالقاهرة، سلسلة نصوص الآباء رقم ٣١، ترجمها عن اليونانية وأعد المقدمة والملاحظات دكتور موريس تاوضروس والدكتور نصحي عبد الشهيد، مركز دراسات الآباء، مايو ١٩٩٤، ص ١٣٩ وما بعدها.

من أبناء الكنيسة، وفي الوسط وقفت امرأةٌ تحمل طفلًا صغيرًا تبكي وقد تملَّك الفزعُ الأمَ أيضًا لأنها صارت هي بؤرة الحوار الساخن، إذ يشير إليها تلاميذ أريوس سائلين إياها: "مَن الذي وُجِدَ أولًا؛ أهذا الولد أم أبيه؟"، والرد معروفٌ طبعًا، فالأب سبق مولد ابنه وبالتالي كان هناك وقتٌ لم يكن فيه ابن هذه المرأة موجودًا، وقياسًا على ذلك كان هناك وقتٌ لم يكن فيه الابن الكلمة موجودًا، والأزلي وحده هو الآب. وهنا توقَّف الأسقف أمام الحشد، وكان يلبس رداء المعلِّمين والفلاسفة، وسأل تلاميذ أريوس والمرأة وقال: عندما تزوَّجت هذه المرأة، فقد تزوَّجت رجلًا وزوجًا وليس أبًا، .. أليس هذا صحيحًا أيها السيدة الفاضلة، فقالت المرأة: نعم. وقال معلمنا أثناسيوس، ولكن هذا الرجل أي الزوج هو زوجٌ فقط قبل مولد ابنه، ولكن بعد مولد ابنه يصبح أبًا، أليس هذا صحيحًا؟ فقال الحشد كله: "نعم"، وابتسم المعلم العظيم وهو يقول: "صار الزوج أبًا عند مولد ابنه وقبل ذلك كان رجلًا وزوجًا فقط. فالأبوة لا تكون أبوةً حقيقيةً إلَّا مع وجود ابنٍ. وإذا كان الله هو الآب الأزلي، فهو لا يكون الآب الأزلي إلَّا في حالةٍ واحدة، وهي أزلية ابنه. وهكذا لا يجب أن نحدِّد معاني الكلمات حسب استعمالها الشائع، بل حسب الأحداث والوقائع. ولأن المسيحية مؤسسةٌ على أحداثٍ تاريخيةٍ، وهي تجسُّد الابن وموته وقيامته، فهذه الأحدث ليست ألفاظًا بل وقائع، لذا بات من الضروري أن يفرض الحدثُ المعنى على الكلمة، وأن يعير الحدث معاني الكلمات إذا كانت الضرورة تدعو إلى ذلك. وهنا لا يصبح التفسيرُ بحثًا عن معاني كلمات، بل بحثًا عن الأحداث التي تحدِّد معاني الكلمات. فإذا ما اتضحت هذه الحقيقة، تحتَّم علينا أن نسأل؛ كيف نميِّز الأحداث وندرك أننا استوعبنا الأحداث قبل الكلمات؟ والجواب الدقيق هو الممارسة الكنسية في الصلاة والليتورجية والطقوس الكنسية.

وحاوِل أن تتأمل أيها القارئ هذه الحقيقة الباهرة، وهي أن التغطيس في الماء ثلاث مرات هو اعترافٌ بتمايز الأقانيم، واعترافٌ بالثالوث. وفي طقوس الكنيسة تحتل معمودية الرب يسوع في الأردن مكانًا بارزًا جدًا، وطبعًا نستطيع أن نفهم الأسباب التاريخية؛ وهي بالتحديد أن الإيمان المسيحي بأن معمودية الرب يسوع هي التي أسَّست المعمودية المسيحية، وأنها كانت المناسبة الأولى الباهرة التي ظهر فيها الثالوث، والاسم القديم للعيد نفسه هو "الثيئوفانيا"، أي الظهور الإلهي. وهنا نرى الحدث؛ الابن في الماء يعتمد من يوحنا، والروح حلَّ عليه بشكل حمامةٍ، والآب ينادي ابنه: "هذا هو ابني الحبيب"، فكيف يفشل أيُّ إنسانٍ -بعد أن يستوعب الحدث نفسه- في فهم الغطسات الثلاثة في المعمودية. وإذا ظهر تفسيرٌ خاص ينكر الثالوث، اصطدم هذا التفسير فورًا بالممارسة لأن الممارسة نفسها ليست مستمدة من كلمات، بل مستمدة من وقائع.

صحيح أن الكلمات تعبِّر عن وتنقل الوقائع والأحداث، وقد نجد أنفسنا أمام أحداث قديمة جدًا لا تربطنا بها علاقة سوى الكلمات، ولكن المسيحية تميَّزت بميزةٍ هامةٍ فَشَلَ الهراطقةُ في استيعابها، وهي أن الأحداث التاريخية تدخل في صميم الطقس الكنسي وهي جوهره، وبدونها ينعدم الطقس الكنسي. ومن يدرس التاريخ الكنسي يعرف أن الهرطقات التي أنكرت الثالوث كانت تمارِس المعمودية بغطسة واحدة فقط.

ويحذر القديس أثناسيوس قارئ المقالة الأولى ضد آريوس قائلًا:

> «إن جوهر الهرطقة الأريوسية هو خداع ضعاف العقول مستندين على لغة الأسفار المقدسة، وبدلًا من تقديم المعنى الصحيح، فإنهم يغمسون كلمات الأسفار في سُمِّ هرطقتهم ... وهكذا يبددون بشارة الأسفار المفرحة ويعتنقون علانيةً فكر قيافا بتهويد *Judaizing* نصوص الأسفار التي يتجاهلون معناها

لأن الله حقًا قد جاء وحَلَّ على الأرض، وهم لذلك لن يحاولوا البحث عن معاني الكلمات من خلال الأقوال الرسولية، لأن هذا ليس هو منهج اليهود، ولكن باختلاطهم بالمانويين (أتباع ماني) الذين بلا تقوى ينكرون معهم أن «الكلمة صار جسدًا»، وينكرون «حضوره الجسدي»... ولكن حيث أنه مكتوب أن الكلمة صار جسدًا وَجَبَ عليهم إمَّا أن يشرحوا الأسفار بشكلٍ صحيح لأن حضوره المتجسِّد هو الذي يشرح الأسفار، أو إذا أنكروا معاني الكلمات صار من الضروري أن ينكروا أن الرب تأنَّس. لأنه لا يليق أن نعترف بتجسُّد الكلمة، وأن نخجل مما كُتِبَ عنه في الأسفار، أو بسبب الخجل من تجسُّد الرب نُفسد معاني الكلمات» (ضد الأريوسيين ١: ٥٣).

وهكذا نرى بكل وضوح أن قاعدة التفسير التي أشار إليها معلمنا أثناسيوس في فقرة تالية، وهي الفقرة ٣ من المقالة الثانية ضد الأريوسيين هي بذاتها رغم اختلاف الكلمات التي اقتبسناها هنا، ولكن من الضروري أن نقدِّم كلمات معلمنا حتى نستنير بها:

«المصطلحات لا توجد قبل الكائنات (حرفيًا الجواهر) وإنما الكائنات أولًا وبعد ذلك المصطلحات (الكلمات)».

وإذا وضعنا الفقرتين معًا، لَتبيَّن لنا أن فساد التفسير الخاص يبدأ بإنكار التجسُّد وهو ما يصفه القديس أثناسيوس بفكر أو مدرسة قيافا، أي "تهويد"، أي إضافة صبغة يهودية على مصطلحات وفكر الكتاب المقدس، وهو ما يجعل الأريوسيين يرفضون الأقوال الرسولية، أي شهادة الرسل عن تجسُّد الرب. فالتجسُّد هو الذي يشرح أسفار الكتاب المقدس ويشرح كل شيء عن الله، وبالتالي ما هو كائن وما قد حدث يسبق

الكلمات، حتى بالنسبة للعهد القديم نفسه، لأن الله كخالق كائنٌ قبل الخليقة، وإنكار وجود الله لا يشرح أي شيء في الكتاب المقدس، بل يعطِّله أو يلاشيه. ولذلك يجب أن يتم ضبط التفسير على أساس ما حدث في التاريخ، لا أن ننكر أحداث التاريخ أو نتجاهلها ثم بعد ذلك نحاول أن نفسر النصوص كما نشاء وحسبما نريد دون أدنى اهتمام بالواقع.

ويجب أن ننتبه إلى أن القديس أثناسيوس لا يضع هذه القاعدة من خلال فكره الخاص، وإنما هي قاعدة الإيمان الرسولي نفسه، لأن مجيء الابن إلينا وتجسُّدَه هو الذي أعطى المعنى المسيحي لأسفار العهد القديم، وهو الذي صاغ ورتَّب أسفار العهد الجديد حسب شهادة القديس إيرينيوس وغيره من آباء الكنيسة. ولا يُغمِض معلمنا أثناسيوس عينيه عن الواقع الإنساني نفسه، بل يقول في كل وضوح ممكن إنه إذا كانت الكائنات تسبق مفردات ومصطلحات اللغة، فقد يترتب على ذلك عدم استخدام الألفاظ بحسب مفهومها الحرفي، ففي بعض الأحيان:

> «يدعو الآباء أولادهم عبيدًا دون أن يعني هذا أنهم أنكروا ميلادهم وبنوتهم. وأحيانًا بداعي المحبة يدعون عبيدهم أبناء دون أن يعني هذا أنهم ينكرون أنهم اشتروهم، وهكذا لأنهم كآباء لهم سلطان على أولادهم يدعونهم عبيدًا، ولأنهم أيضًا يحبِّون عبيدهم يدعونهم أبناء. وهكذا دعت سارة إبراهيم «سيدي»، رغم أنها لم تكن عبدة، بينما عندما كتب السيد والرسول بولس إلى فليمون دعا عبده أنسيموس أخًا ...» (الرد على الأريوسيين ٢ : ٣).

فالذي يحكم تفسير الكلمات هو الواقع، وهو العلاقة الواضحة، والموقف نفسه، أو كما يقول أثناسيوس، المناسبة التي قيل فيها النص أو الكلمات نفسها.

ثانيًا: التفسير الخاص يتجاهل المجال العام الذي تقدمه الأسفار:

لقد أشرنا من قبل إلى المجال أو الموضوع الذي يقدَّم لنا في الكتاب المقدس. وقد استخدم القديس أثناسيوس في المقالة الثالثة، فقرات: ٢٨ و ٢٩ و٣٥ كلمة يونانية هامة لا تختلف عن الكلمة الإنجليزية *Scope*. **والمجال الذي تقدِّمه الأسفار المقدسة هو ثنائية الأقوال الخاصة بالرب، فهو الابن الأزلي وابن الإنسان.** ويقول أثناسيوس إن هذا المجال موجودٌ في كل الأسفار الإلهية الموحى بها. ويؤكد أثناسيوس في فقرة ٣٠ من المقالة الأولى على أن القارئ يستطيع أن يستوعب هذه الحقيقة من خلال إيمانه بتجسد الرب.

وتمييز المستوى الإلهي والمستوى الإنساني في الأسفار هو موضوعٌ دقيقٌ جدًا لأنه قلب وجوهر التعليم المسيحي عن الخلاص. وهكذا إذ ينكر التفسير الخاص المستويين أو ثنائية الأقوال الخاصة بالرب، فكما اصطدم بالممارسة الكنسية وبالثالوث، يصطدم بشكل واضح بتجسُّد الرب.

ثالثًا: التفسير الخاص ينكر الإيمان الذي يجب أن يسبق تفسير الأسفار:

فقبل أن يفسِّر أحدٌ الأسفارَ عليه أن يسأل نفسه عن الإيمان الذي يسبق تفسير الأسفار، والذي يقول عنه القديس أثناسيوس إنه في ليتورجية الكنيسة الخاصة بالمعمودية المقدسة:

«في المعمودية المقدسة يُودَع الإيمان كله»
(ضد الأريوسيين ٤ : ٢١).

وهنا نكتشف ثلاثة دعائم أساسية خاصة بالمعمودية:

الدعامة الأولى: إنها تُمارَس باسم الثالوث، وهذا يعني أن الثالوث واحد في الجوهر، إذ لا يمكن أن ينضم خالق ومخلوق إلى سر المعمودية،

لأن المخلوق لا يشترك مع الخالق في شيء، لا في الخلق ولا في الخلاص.

وقد رأينا أجيالًا متعاقبة منذ العصر الوسيط وقد تجاهلت علاقة الخلق بالخلاص في كل كتابات الآباء، فاندفعت لدراسة موضوع الخلاص والفداء والكفارة دون أي اهتمام بالخلق، ولذلك كثيرًا ما سقطت بعض مدارس اللاهوت في العصر الوسيط في فكر الأريوسية -وأحيانًا دون أن تدري- فضاع الإيمان الرسولي الذي يُعلن صراحةً بأن الخالق وحده هو القادر على الخلاص، وأن أي مخلوق مهما كانت قدراته لا يستطيع أن يعطي الحياة لآخر مهما كان هذا الآخر، ويعجز المخلوق عن غفران الخطايا وتجديد الحياة الساقطة.

الدعامة الثانية: وهي أن المعمودية هي اتحادٌ بين الإنسان والثالوث، وأن هذا الاتحاد يتم من خلال تجسُّد الرب ومعموديته في الأردن وموته وقيامته وصعوده وحلول الروح القدس الذي يأخذ من الابن ويعطي المؤمنين. وقد تبدو هذه فكرة بسيطة لا تستحق حتى الاهتمام، أو فكرة شائعة لا يجب أن نضيع فيها الوقت، ولكن الحقيقة الهامة التي تكمن خلف هذه العبارات البسيطة في كتابات كل الآباء، لا سيما معلمنا أثناسيوس، هي أن العهد الجديد يختلف عن العهد القديم في أنه عهد الإله المتجسِّد الذي جاء بنعمة الاتحاد بالله وبالتجديد وردِّ العلاقة التي كانت قائمة قبل السقوط بين آدم وخالقه إلى ما كانت عليه، بل ودعَّمها في هذه المرحلة الأخيرة بشكلٍ يجعل علاقة الإنسان بالله ثابتة على أساسٍ ثابتٍ لا يتغير، وهو المسيح ابن الله المتجسِّد. ومن هنا، لا يثور سؤالٌ عن تفسير الأسفار دون أن يثور سؤالٌ آخر أهم وأخطر بكثير؛ هل يساهم هذا التفسير في الإعلان عن نعمة العهد الجديد وتقدُّم الإنسان إلى ما هو أعظم، أم أن الإنسان مازال على نفس مستوى علاقة اليهود بالله؟

وعلى هذا الأساس بالذات، بنى الآباء الذين حاربوا البدعة الأريوسية اتهامهم لها بأنها رِدَّة إلى اليهودية وتُمثِّل الارتداد عن نعمة الله في يسوع المسيح، ولم يكن هذا الاتهام مجرد تشويش أو دعاية أو حرب نفسية ضد الأريوسيين، بل كان مواجهةً حادةً مع حقيقة الخلاص نفسه؛ إمَّا أننا عُدنا إلى الله في ابنه وبالروح القدس، وإمَّا إننا مازلنا كما كانت الإنسانية قبل مجيء الرب وتجسُّده. لذلك لم يكن عبثًا أن يقول أثناسيوس إن الايمان كله مُودَع أو مستقِر في المعمودية المقدسة التي بها تم اتحادنا إلى الأبد بالله.

الدعامة الثالثة: المعمودية هي انضمامٌ إلى الكنيسة، وهي باب الدخول إلى الإيمان والحياة الكنسية الأرثوذكسية. ففي المعمودية يتم تسليم الإيمان في خدمة قبول الموعوظين، وفيها أيضًا يتم أول تناوُل من سر الشكر بعد الرشم والدهن بزيت الميرون، ولذلك تُسمى بسِرِّ الانضمام إلى الكنيسة. وعندما ينضم الإنسان إلى الكنيسة فهو يقبل الإيمان الرسولي، ويتعلم التسليم الحي، ويصبح قانون الإيمان أو "قاعدة الايمان"، وهو الاسم القديم السابق على مجمع نيقية، هو قاعدةُ التمييز بين التعليم الصحيح والتعليم الكاذب الذي تذيعه الهرطقات.

وهكذا يصبح جوهر الإيمان كله -كما قال معلمنا أثناسيوس- هو الحقيقة التي تزرع الحياة وتعلِّم المسيحي التمييز بين التعليم الصحيح والتعليم المزوَّر الكاذب الذي قد يأخذ بعض نصوصٍ من الأسفار المقدسة، ويستعير فكرةً من هنا وفكرةً من هناك من المسيحية، ولكنه في نهاية الأمر يصطدم بحقيقة هامة، وهي أن الإيمان في جملته كما أُودِع في المعمودية لا يقبل إلَّا التفسير الرسولي.

وعلى سبيل المثال كان تصدي القديس إيريناوس لمدارس الغنوسية مبنيًّا على إنكار هذه المدارس لحقيقةٍ هامة، وهي أن "قاعدة الايمان" تعلِّم بإلهٍ واحدٍ خالق السماء والأرض، بينما تعلِّم مدارس الغنوسية بإلهين. وكان تصدي القديس كيرلس لهرطقة نسطور مبنيًّا على أساس أن قانون الإيمان النيقاوي يقول: "نؤمن بربٍّ واحدٍ يسوع المسيح"، بينما تنادي النسطورية بربٍّ هو الكلمة، وإنسانٍ هو يسوع المسيح، وبذلك تنقض كلام الاعتراف الرسولي بربٍّ واحد.

إذن، الانضمام إلى الكنيسة في المعمودية يعني أن لا نقبل التفسير الخاص مهما كان مصدره، طالما أنه يتعارض مع حقائق الإيمان الرسولي.

+ + +